كـائـن الـوقـت العربيّ

مصطفى خضر

كائنٌ ينتظرُ الرؤيا شهيدَ العشقِ،
مازال يلبِّي، ويناجي، ويصلِّي
ويعاني لغةً فيها حضورٌ وخفاءْ
ويعاني غَيْبَةً فيها التجلِّي...
جمـرةٌ خضراءُ في عينيـهِ، في كفّيـهِ ينبوعٌ،
وفي طلعتهِ زيتونـةٌ أولىٰ أضاءتْ، وتُضَاءْ...
جبهةٌ تسجدُ لـلأرضِ، وفي الروحِ اللهَبْ
طرقٌ من ذهبٍ تبسطُها خطوتُهُ؛
مـا مـالَ عـن خطِّ الذَّهَبْ!
حلَّ في هجرتهِ كلُّ شهيدٍ،
وآحتجبْ
بعد أن ضاقَ بهِ الجسمُ،
وبالجسمِ
الرِّداءْ...
وآفتـدىٰ كلَّ قـريبٍ وغريبٍ ووحيـدٍ وبعيدٍ
وآهتدىٰ في قربهِ قدّاسُ وقتٍ عربيّ!

* * *

كـائنٌ ضـاقَ بـهِ كَشْفٌ ورؤيـا وظهورْ
وجههُ وجهُ غزالٍ كوكبيّ
ينحني بـين طلولٍ من عظامٍ وهشـيرٍ معدنيّ
وبقـايـا حيـوانـاتٍ وتبنٍ وهشيمٍ
وبثورْ...
أيُّ مسكٍ ولبانٍ وبخورْ
نزفتهُ عتباتٌ من رمادٍ آدميّ
تـظلمُ الفكـرةُ فيـهِ، يـظلمُ الكَشْفُ النقيّ...
آهٍ من هذا الرمادِ الآدميّ!

* * *

أيُّ معنىٰ في الإشارهْ
أظلمتْ، إذْ ظلَمَتْ، فيـهِ الـوجـوهُ المستعارهْ:
جمهراتٌ زيّفتْ قدّاسَها في كلِّ بابْ
جمهراتٌ جاورتها جمهراتْ
وأنا الشاهدُ وحدي، عاشقُ الأرضِ
ومجنونُ الحياةْ
لم أزلْ أنتظرُ المعجزةَ الأولىٰ
كتاباً في سماء، وسماءً في كتابْ
وأراهـا لغـةً شـاحبـةً، مهجـورةً، متروكةً خلف حجابْ!
لغةٌ أم ذاكرهْ
وهبتْ قارئَهَا ممّا وهَبْ
ورقاً دوّنهُ حبرُ التّعَبْ
وشعاعاً جسديّاً في رقيمٍ وقَصَبْ
ألّفتهُ فطرةٌ أو كلماتْ
وآنتمى فيها إليها، ورعَاهَا العاشقانْ:
ساحرٌ فاءتْ إليهِ ساحرهْ
وأقَامَا في المكانْ!

* * *

كائنٌ من لغة في جسدٍ، من جسدٍ في لغةٍ
ضَمَّ إليهِ القاهرهْ
وصَحَا فيها على حلْم دمشقْ
سائِحاً بين عيون الناصره
ولَـهُ في النيـل مَثْـوىٰ، وسريـرٌ في الفراتْ
وضحىٰ بغدادَ أسرابُ نخيلْ
هاجرتْ مِنْ بكّة، آمتّدتْ،
وتـدعـوهـا جمـارٌ وحجـارٌ في جليـلٍ وخليلْ...
وبباب القدسِ طفلٌ يتأمّلْ
كائناً وزّعَهُ غَرْبٌ وشَرْقْ:
آهٍ، يا حلمَ دمشقْ!

* * *

هـوذا الكائنُ! في هجـرتهِ كـانتْ شعوبٌ تترحَّلْ

←

كائنٌ لم يتشرَّدْ، كائنٌ لم يتسوَّلْ
لم تزلْ منهُ خلايا أمّةٍ في
ذريّة تبني، وتعملْ
فَلْيكنْ للأرضِ ميقاتٌ جليّ
ونهارٌ من ربيعٍ أبديّ، وهتافٌ في
ربيعٍ جسديّ
وَلْيكنْ منها وريثٌ حملتهُ كائناتٌ،
رعتهُ كائناتٌ، حملَتها أمّهاتٌ
ضاعفتْ منها شعوباً وبلاداً بين قحطٍ
وفناءْ!
وليكنْ منها رغيفٌ لفقيرْ
وقماطٌ لوليدٍ، وغطاءٌ لسريرْ
ولزوجينِ ندىً أو وردةً بين آنفصال
ولقاءْ
لِيكنْ منها لباسٌ وغذاءٌ وكساءْ!

* * *

هوذا فصلُ العشيَّاتِ الأخيرهْ
قنّعتهُ غيمةٌ سوداءُ، عمياءُ،
كبيرهْ...
كيف يَلْقىٰ عاشقُ الأرضِ مصيرَهْ؟
كيف يلقىٰ سكناً فيها شقيٌّ ويتيمٌ
وطريدْ؟
قلتُ، واللهُ شهيدْ:
هذه الأرضُ الّتي أُجْبَلُ فيها، ثمّ
أحيا، أُمْتَحَنْ
وطني الأوّلُ فيها، وطني الآخرُ
فيها...
آهِ، يا اللهُ: ما أحلىٰ الوطنْ!
لم أزلْ أعرفهُ، يعرفُني، بين قديمٍ
وجديدْ
لم أزلْ فيهِ مقيماً، في قماطٍ وكفَنْ!
لم أزلْ مجنونَهُ الأوّلَ، مازلتُ
أحبُّ...
لم أزلْ فيه غزالَ الدمِ والمسكِ،
وهذي الأرضُ تطويها المِحَنْ!
وَهْو مهدي بين ميلادي وموتي،
وَهْو مأوىٰ كائناتي وسلالاتي،
وظهوراتي، وسجني، وفضائي...
وَهْوَ رَحْبٌ، وأنا حرٌّ ورَحْبُ!

* * *

يا حبيبي! ما الذي ضيَّعني إذْ
ضيَّعكْ!
برهةٌ تفصلُنَا، تكسرُنَا، تقسمُنَا،
أَمْ عالمٌ مضطربٌ وزّعني، أَوْ
وزَّعكْ!
ما الذي ينكرُ معنىٰ ورموزاً تُبْتَكَرْ؟
وأنا في السرِّ والجهرِ مَعَكْ!

* * *

وطني أعرفهُ، يعرفني منذ
شعاعات الصِّغَرْ!
قِبْلةٌ من ثمرٍ، أنشودةٌ في فِطرةِ
البركانِ،
في نسمةِ عصفورٍ، وفي رحمةِ
ينبوعٍ،
وطفلٌ ينحني دفترهُ، أو يَثِبُ...
كتبٌ تنمو، وميراثٌ من الماءِ،
فصولٌ دمُها يضطربُ
وغلالاتٌ من النّحلِ، حقولٌ من
شعاعٍ ومطَرْ
بيتُ أعراسٍ، وأجراسُ ربيعٍ،
ونهارٌ من أيائلْ
وخصابٌ دائمٌ تحضنهُ كلُّ المنازلْ
هو بيتُ الجدِّ، بيتُ الأبِ لابن
ضلَّ،
أو صارَ وحيداً وغريباً في المداخلْ
جمرةُ الأسلافِ والأحفادِ،
أوراقُ حريرٍ وسَحَرْ
حجرةُ الأنثىٰ التي تشعلُ أحزانَ
الذَّكَرْ!
شهوة الخلقِ التي تملؤُني، تملؤُهُ،
والتربةُ العذراءُ تزكو بلقاحٍ
وبَصَرْ...
وأنا أستيقظُ الصاعقةَ الأولىٰ،
وأزهو بالشّرْدْ
نخلةٌ تحفظني، يغمرُ كفَّيَّ وحضني
الرّطَبُ
وبعينيَّ سماءٌ من حَجَرْ!
كيف لا تدهشني، تدهشُ بي كلُّ
العيونْ
وأنا يصحبُني صمتٌ وحزنٌ وجنونْ
وأنا ذاك الفتىٰ الحرُّ الشقيّ
طاعنٌ في العشقِ، عريانٌ وجوعانُ،
وبعضُ العشقِ فيهِ حكمةٌ أو
لعِبُ...
لم أزلْ ملتهباً، ممتلئاً بين غموضٍ
ووضوحٍ،
ظاهراً أحتجبُ
قبل أن تضطربَ الروحُ بوجْدٍ
أبديّ!
وأنا أنشودةُ الوقتِ البعيدِ الجاهليّ
وأنا صرتُ تراباً من نبيٍّ، وتراباً
لنبيّ
وأنا السيفُ الّذي تحملهُ كفٌّ
عليّ...

←

بيننا مذبحةٌ يُدركها العشّاقُ والجوعىٰ،

وتدنو بخرابٍ وبميقاتٍ ملوَّثْ!
اقتربْ يا وطني، وآنظرْ إليّ
كيف لا أُقْتَلُ من قبلُ ومن بعدُ، فأُبْعَثْ!
كلُّ هذا الفسقِ الشائعِ مُحْدَثْ
وأنا الطيرُ الأليفُ الدنيويّ
وحدهُ يأوي إلى عشّ الرمادِ العربيّ
بين حربٍ ومجاعهْ!
اِقتربْ يا وطني!
وآستيقظِ الروحَ التي تُنْتَهَكُ!
أيُّ تاريخٍ تربّيه الجماعهْ؟
هيئةٌ رثّت، وأوراقٌ وأجزاءُ مُضَاعَهْ
حلمٌ يكسرهُ الحلمُ، قوىٰ ضلّتْ...
خطابٌ أو إشاعهْ...
ما الّذي نمتلكُ؟
أيّ عصرٍ يُمْتَهَنْ
حلمهُ المُشْتَرَكُ!
وطني، يا عربيّ

* * *

أنتَ، يا أغلى وَطَنْ!
أنتَ باقٍ،
وأنا باقٍ على أرضِكَ أنمو،
وسيبقىٰ بيننا الحلمُ، وينمو،
ثمّ ننمو في الزّمَنْ!

* * *

هكذا أصغي إلى الماءِ،
إلى ذريّة الماءِ،
إلى روحِ الترابْ...
وإلى روحِ اللغهْ!
ثمّ أخضرُّ مع الأرض، وأسعىٰ في سحابٍ وكتابْ!
هكذا يعلنني الوقتُ دماً أو فكرةً بين العبادْ!
ثمّ يخضرُّ رمادٌ وفصولٌ في الرمادْ...

* * *

سلطةُ الحلمِ لنا،
فَلْتحترقْ سلطةُ دنيا فارغهْ!
سلطةُ الروحِ لنا، والكَلمهْ...
أيُّ شعبٍ لا يرىٰ في الكلمهْ
وَقْتَهُ أو حُلُمَهْ!

* * *

وطني قهوةُ صبحٍ، وذراعُ آمرأةٍ ضاحكةٍ،
شرفةُ بيتٍ من هواءْ
وشعاع من تلاميذَ،
رغيفٌ، زيتُ زيتونٍ وزعترْ
جَفْنُ خبّازىٰ ونعناعٍ، كوىٰ من هند باءْ
وردُ جرحٍ، ماءُ وردٍ، ومناديلُ أرزٍّ،
وقناديلُ من الحنّاءِ، لوزاتٌ وسكّرْ...
تربةٌ تبتكرُ الأسماءَ والأشياءَ حولي،
وأنا تنهضُ أجزائي، وتلتمُّ، وتكبرْ...
لِيَ فيها إخوةٌ،
فيها بنونْ...
أنا قمحٌ لخلايا الشعبِ، نحلٌ، ونخيلٌ...
أنا عشقٌ، عاشقونْ...
أنا وقتٌ يهتدي فيه بداةٌ ورعاةٌ،
وجياعٌ وعراةٌ، وعصاةٌ وتقاةٌ،
شهداءُ، فقراءُ، ودراويشُ، دعاةٌ، حالمونْ...
أنا وقتٌ يهتدي في لغةٍ أولى، وفي حلمِ الجسدْ!
كائنٌ يملؤُهُ المعنىٰ،
وبالمعنى يكونْ!
أنا أرضٌ لوريثٍ، وآجتماعٍ، متّحَدْ...
كائنٌ تنجبهُ أمٌّ وحيدهْ
كائنٌ تعلنهُ روحُ القصيدهْ
وَهْوَ مجموعٌ ومُفْرَدْ
أمّةٌ في لغةٍ، أو لغةٌ في أمّةٍ تنزفُ، تصعدْ
كثرةٌ في واحدٍ،
جسمٌ ومعنىٰ،
شفَّ عن رؤيا وشاهدْ...
هُوَ يصفو، هو يشهدْ
وتسمّى بهِ أجزاءُ من الوقتِ،
وآياتٌ، فصولٌ وسوَرْ...
ويسوّي عالماً فيه نكابدْ
ويسوّي عالماً فيه نكابدْ
لم يزلْ يعلنهُ طينٌ وفخّارٌ وصلصالٌ وماءٌ وقَمَرْ!

* * *

لِمَ لا أحيا، ولي فيهِ مريدونَ،
ولي فيه صحابٌ وشهودٌ
وبيوتٌ وقصائدْ
وعلى تربتهِ أسعىٰ، أجاهدْ!

* * *

←

وطني، يـا وطني، يـا تـربـةَ الحبِّ الكبيرهْ
ضيَّعَ العبدُ تراثَهْ

فآحمِهِ في ليلِ أسمالِ الحداثهْ!
ولتكنْ للعـاشـقِ التـالـفِ، لـلأمّ الكسيرهْ
ولبيتٍ ورغيفٍ، ولكفٍّ، ولعينٍ،
ولمسحـورٍ، لمأخـوذٍ، وللحلمِ المعذَّبْ...

بيننـا عـالمُنـا الأرضيُّ ينمـو، ثمّ يهوي، يتحوَّلْ
ونرىٰ ما يُرَىٰ
هـذه الأشيـاءُ والأسـماءُ تهـوي، ثمّ تشحبْ
ما الذي تنتجهُ روحُ الثرىٰ
في حضورٍ وغيابٍ وسماعٍ وشهادهْ!
أيُّ وقتٍ وطنّي بيننا يُتْلى، ويُكْتَبْ؟
أيّ معنىٰ للولادهْ!

* * *

وطني، يا وطني: آهٍ من العشقِ،
ومن بُعْدِكَ في القُرْبِ... وآهٍ منكَ،
مـن شعـري، ومـن فقري، ومنّي...
آهٍ من صمتِ المغنيّ!

أنتَ لي في السّرِ والجهرِ،
فمنْ تَوْأَمُكَ الطينيُّ غيري!؟
لك منّي دمعةُ الحقِّ، شعاعُ العشقِ،
ينبوعُ آنتماءْ...
أعْطِني جرعـة ماءٍ وهواءْ!
وآقتربْ يا وطني منّي،
من العبدِ الفقيرْ!
وآقـترب منّي، ومن خبـزِ بنيـكَ الشّهداءِ، الفقراءْ
ثم ضُمَّ الدمَ في فصلٍ أخيرْ!

حمص (سوريا)

نزيف النون

هلال محمّد حمدة

(١) يقفُ المدى فوقي،
وفي عينيهِ سَيِّدة تفرُّ من الرُؤَى.
في بطنها شيخٌ،
أدارتْ صمتَهُ أنشوطةُ الجوعِ المباركِ بالجنونْ.
ترمي به عُرْضَ التشهيّ الحيّ.
والشهقةِ الأولىٰ.
عَلِّمْ عصاك تحوّلَ الخطوِ المباغتِ للظلالْ.
فاليَمُّ منتظرُ بأمك،
كي تقرَّ عُيُونُها، بالنفخةِ الكبرى،
فهيا... وانتظرْ.
(٢) يقفُ ارتعاشاً لاحتضارِ الذاكرهْ.
يتسلَّقُ النونَ الأخيرةَ للجنايين والجنونْ.
يتعكَّزُ الميلادَ، بين البدءِ.. والبدءِ...
يستصرخُ الموتى،
يهزُّ النخلة الحُبْلى،
فيهتزُّ الصراخُ الأبكمُ العينينِ في العرجونْ.
ما كانَ.... ما سيكونْ.
لا يشتهي الوهمُ اشتعالَ الظلِ،
في وقتِ الهزيمهْ.
عُدْ عاقراً...
«ثمّ ابتدئ موتاً لحلمكَ،
وابتدْئ حلماً لموتكْ».
فالوقتُ مثل الوقتِ، ذاكرةٌ... وموتْ.
فالوقتُ مثل الوقتِ، ذاكرةٌ... ومووو.... تْ...

إهداء إلى الزنزانةِ الخضراءِ وملحمةِ الجنونْ، سؤالِيَ الخالدْ: محمّد عفيفي مطر.

جامعة القاهرة